أسس تعليم القرآن

د/ عامر لعرابي- جامعة باتنة-

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن صلاح المجتمع بصلاح الفرد، وصلاح الفرد بصلاح نفسه، ولا يقدر على صلاح النفس إلا خالقها وبارئها لعلمه بحقيقتها، ولذا أرسل الرسل وأنزل الكتب.

فإصلاح النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل، وأول خطوة في هذا الإصلاح هو تعليم القرآن الكريم، لأنه الكتاب الوحيد في هذه الدنيا الذي يتضمن منهجا متكاملا كفيلا بإصلاح النفس الإنسانية، إلا أن هذه المهمة العظيمة لا يقوم بها القرآن إلا بتعليمه التعليم الصحيح كما كان يعلمه رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ومن تبعهم بإحسان.

وإذا كان القرآن يعَلم اليوم لكن لا نرى لهذا التعليم كبير أثر، فإنما ذلك من خلل في طرق التعليم، وخلل في مواصفات المعلم، ولذا يجب فورا العودة إلى التعليم النبوي، تعليم القرون الثلاثة المفضلة، لنجني ما جناه أسلافنا ونحصد ما حصدوه.

وقد حاولت في هذه الورقات أن أرسم معالم لهذا المنهج، وسميته بأسس المنهج القويم لتعليم القرآن، لأنتفع به أنا شخصيا وأستعين به فيما أبذله من جهد في تعليم القرآن، ولعل غيري يجد فيه ما وجدت. والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص والتوفيق والسداد.

الأساس الأول: تنجيمه (سواء في حفظه أو أخذ الرواية)

أي أن نحاول قدر المستطاع إطالة فترة تلقي الطالب للقرآن الكريم على أستاذه، إذ كلما طالت مدة التلقي كلما فعل القرآن فعله في نفس الطالب، إذ هو كالدواء الذي يعطيه الطبيب للمريض، ويجزئه له على جرعات قصد القضاء على المرض بالتدرج، واقتلاعه من جذوره، والقرآن شفاء، قال تعالى: ﴿**وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين**[1]﴾، وهذا الشفاء لا يؤدي غرضه، ويفعل مفعوله إلا بتقسيطه وتجزئته، كما يقسط الدواء، وهذه هي الحكمة من نزول القرآن منجما على ثلاث وعشرين سنة، ﴿**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا**[2]﴾، أي هلا نزل عليه القرآن جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور، قال تعالى: نزلناه (كذلك) منجما مفرقا (لنثبت به فؤادك)، أي نقوي به قلبك، (ورتلناه ترتيلا)، أي أتينا به شيئا بعد شيء بتمهل وتؤدة لتيسير فهمه وحفظه[3] وتربية الأمة به، وهذا أحد الأدلة على نزول القرآن منجما مفرقا، ومن الأدلة أيضا قوله تعالى:

﴿**وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**[4]﴾ أي نزلناه مفرقا في عشرين سنة أو وثلاث لتقرأه على الناس (على مكث) أي مهل وتؤدة ليفهموه (ونزلناه تنزيلا) شيئا بعد شيء على حسب المصالح[5].

ونأخذ من الآية الأولى أمرين:

الأول: أن القرآن نزل مفرقا.

والثاني: أن الكتب السماوية نزلت جملة، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتى كاد يكون إجماعا ووجه الدلالة على هذين الأمرين أن الله تعالى لم يكذبهم فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية جملة، بل أجابهم ببيان الحكمة من نزول القرآن مفرقا، ولو كان نزول الكتب السماوية مفرقا كالقرآن لرد عليهم بالتكذيب، وبإعلان أن التنجيم هو سنة الله فيما أنزل على الأنبياء من قبل.

كما رد عليهم بقوله: ﴿**وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**[6]﴾ حين طعنوا على الرسول وقالوا: ﴿**مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**[7]﴾.

جاء القرآن بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية عن علم بها من خالقها، فجاء لذلك منجما وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق.

جاء ليكون منهج تربية ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يقرأ لمجرد اللذة أو لمجرد المعرفة، جاء لينفذ حرفا حرفا، وكلمة كلمة، وتكليفا تكليفا.

جاء لتكون آياته هي الأوامر اليومية التي يتلقاها المسلمون في حينها، ليعملوا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته أو في الميدان الأمر اليومي، مع التأثر والفهم والرغبة في التنفيذ، ومع الانطباع والتكيف وفق ما يتلقاه. من أجل هذا كله نزل القرآن مفصلا[8].

فهِم أسلافنا الأوائل من الصحابة والتابعين هذه الحكمة من نزوله مفرقا، فساروا في تعلمه وتعليمه على نفس النحو، لتبقى نفس الحكمة محققة، فكان الرجل كما يقول ابن مسعود "إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[9]، ويقول أبو عبد الرحمن السلمي: "حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا أنهم كانوا يستقرءون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلِّفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعا"[10].

وهذا المنهج هو الذي سار عليه القراء، قال ابن الجزري: "كانوا في الصدر الأول لا يزيدون القارئ على عشر آيات، ولو كان من كان لا يتجاوزون ذلك"[11]، هذا

في الأقساط المأخوذة، وأما في الرواية المقروءة، فلقد كانوا في الحرص والطلب، حيث أنهم يقرؤون بالرواية الواحدة على الشيخ الواحد عدة ختمات، لا ينتقلون إلى غيرها[12].

ولقد قرأ الأستاذ أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصْري القيرواني (ت 488هـ) القراءات السبع على شيخه أبي بكر القصري تسعين ختمة، كلما ختم ختمة قرأ غيرها، حتى أكمل ذلك في مدة عشر سنين، بدأ وعمره عشر سنين، وأكمل وعمره عشرون سنة.

وكان أبو حفص الكتاني من أصحاب ابن مجاهد وممن لازمه كثيرا، وعرف به، وقرأ عليه سنين لا يتجاوز قراءة عاصم، قال: "وسألته أن ينقلني عن قراءة عاصم إلى غيرها فأبى علي".

وقرأ أبو الفتح فرج بن عمر الواسطي -أحد شيوخ ابن سوار- القرآن برواية شعبة عن أبي الحسين علي بن منصور المعروف بابن الشعير الواسطي عدة ختمات في مدة سنين.

وهذا قالون لم يزل يقرأ على نافع حتى مهر وحذِق، وقال له نافع: "كم تقرأُ علي؟ اجلس إلى اسطوانة حتى أرسل إليك من يقرأ"، أي: إلى متى وأنت تقرأ علي؟ اذهب الآن علم الناس فقد أتقنت.

وقال قالون: جالست نافعا بعد الفراغ عشرين سنة.

فإذا كان القصد من تعليم القرآن هو إصلاح النفوس، فإنه لا يتوصل إلى ذلك إلا بطول صحبة القرآن ومعلم القرآن، ولا ينتقل من جزء إلى آخر إلا بعد أن يطمئن المعلم إلى أن الطالب قد تفاعل مع ما أعطي، وظهرت آثاره عليه، وأنه قد فعل فعله في نفسه.

وهذا ما جعل الشيوخ فيما ذكرنا آنفا يحبسون الطالب عند قراءة واحدة لا يجاوزونها، وليس ذلك لأنه لم يتقنها. وما كان ليغفل الشيوخ عن أن القرآن إنما أنزل لانتزاع العقائد الفاسدة، والعادات الضارة.

ومعلوم أن النفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة، والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهي عنه، ثم ليس من السهل أيضا تثبيت العقائد الصحيحة، وتعليم الأخلاق الفاضلة مرة واحدة.

ثم حتى الحفظ المتين إنما يكون كلما صغر حجم المأخوذ، وبعد الفاصل الزمني بين الجزأين لتتاح الفرصة للفهم والعمل، مثل ما يستوعب الدرس التطبيقي بكثرة التمرينات والتطبيقات، فينبغي أن يظهر القرآن في شكل الطالب ومظهره، ومخبره، وفي لباسه وحديثه وسلوكه، وتفكيره وتصرفاته، وأخلاقه ومعاملاته.

الأساس الثاني: معلمه (مواصفات المعلم) لا بد أن يكون المعلم

1- متقِنا (سنشرح ذلك في الأساس الرابع).
2- مؤدَّبا.
3- عارفا بطرق التعليم.

هذه لابد منها، ويستحب أيضا:

1- أن يكون كهلا.
2- أن يكون متزوجا.
3- أن يكون ملما بشيء من معاني القرآن، واللغة العربية، وعلوم القرآن، والسيرة والتاريخ.
4- أن بكون على قدر من الاستقامة والصلاح.
5- أن يكون مستغنيا.
6- أن يكون نسيبا .

ويمكن إرجاع كل الخصال التي ذكرناها بعد الإتقان إلى شيء واحد وهو:

المروءة: وهي آداب نفسانية، تحمل مراعاتُها الإنسانَ على الوقوف عند محاسن الأخلاق، وجميل العادات، أو هي كمال الرجولة[13].

الأساس الثالث: فهمه

وأي فهم؟ الفهم المورِّث الخشية والإجلال والورع، طهارةَ القلب، وصدقَ اللسان، والسمتَ الحسن، والنفسَ الزكية، والعينَ الدامعة، والخلقَ الحسن، وسداد الرأي، لا نريد فهم المعرفة.

وهذا الأمر - وهو لزوم فهم القرآن – لا يحتاج إلى دليل إذ أنه معلوم ضرورة، وإلا كيف ينزل الله كتابا على قوم يطالبهم فيه بفعل أشياء وترك أشياء، وهم لا يفهمونه؟ وكيف يأمرهم سبحانه أن يدّبروا آياته ويتذكروا وهم لا يفهمون معناه ؟ قال تعالى: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب**[14]﴾، وقال تعالى: ﴿**ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون* قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون**[15]﴾ وما أشبه ذلك من آي القرآن التي أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتعاظ بمواعظه، كل هذا يدل على أن عليهم معرفة تفسيره، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له: اعتبر بما لا فهم لك به.

ثم ما كان كل رسول يبعث بلغة قومه إلا ليُفهمهم ما يوحى إليه، قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**[16]﴾.

وقد عاب على الذين يقرؤونه دون فهم فقال: (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني) أي تلاوة (وإن هم إلا يظنون)[17].

وعاب على الذين لا يتدبرون فقال: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**[18]﴾، ومن صفات عباد الرحمن إقبالهم على القرآن متفهمين مستبصرين، فإذا ذكرهم مذكر بآيات ربهم -أي القرآن – أقبلوا عليها وأكبوا على سماعها بآذان واعية وأبصار راعية وقلوب حاضرة وعقول متدبرة، لا كمن يقبلون عليها ويكبون على سماعها ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون لأنهم لا يعقلون[19]، قال تعالى: ﴿**والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا**[20]﴾.

وكان هذا دأب القراء من الصحابة والتابعين، كما سبق وأن رُوِّينا عن عبد الله بن مسعود وأبي عبد الرحمن السلمي.

وأخرج الطبري عن مسروق قال: "كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار"[21]، وقال ابن مسعود: "والذي لا إله غيره، ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت، وأين أنزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته"[22].

وفي الموطأ أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها[23].

قال ابن عبد البر[24]: "فهو من قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "إنك في زمان كثير فقهاؤه قليل قراؤه[25]"، إنه كان يتعلمها بأحكامها ومعانيها وأخبارها ولذلك طال مكثه فيها.

وأخرج الطبري عن مجاهد قال: "عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها"[26].

الأساس الرابع: تجويده: تعلم القرآن ذو ثلاث نواح

الناحية الأولى الأداء: أي إقامة حروفه وتلاوته بأحكامه

وهذه الناحية صوتية محضة، ولذا لا يبلغ الطالب درجة مقبولة من التحصيل فيها حتى يتقن نطق الحروف مخرجا وصفة، مع علمه بالأحكام العامة وأحكام الرواية مع الوجوه، ثم الوقف والابتداء، وأصعب شيء في هذا المبحث بعد المخارج والصفات الميزان- وهذه هي الناحية الثانية- وهو عبارة عن ضبط المقادير بين الحركات والشدات، والغُنَّات، والمدود الطبيعية، والمدود الفرعية، ويكمِّل كل ذلك حسن الصوت وتحسينه وهذه هي الناحية الثالثة.

وهذا المبحث يعتمد اعتمادا كليا على التلقي مشافهة من متقن حاذق خبير بخفايا هذا العلم.

الأساس الخامس: تدبره من أجل التأثر والهداية

لأن الفهم لا يكون إلا عن تدبر، ولا تدبر إلا عن فهم.

والتدبر هو النظر والتفكر في أواخر الأمور وعواقبها ودبرها.

فالمراد بتدبر الآيات، أي النظر والتفكر والتأمل في معانيها بعد الانتهاء منها، وهذا التدبر والتفكر والنظر عمل فكري لا يتم إلا حال الصمت والسكوت، ولا يكون ذلك إلا بعد الانتهاء من الآية، وهذا يقتضي صمتا وسكوتا بعد انقضاء الآية يكفي للتدبر والفهم والعظة.

ولذا فالقراءة السريعة في ذاتها والتي لا فواصل فيها كافية، لا تترك للقارئ والمستمع وقتا للتدبر.

وفهم القرآن والاتعاظ به شرط العمل به، والاهتداء بهدايته التي هي الغرض الأول من إنزاله.

والتدبر لا يحصل ولا يتمكن منه إلا: بالتمهل، والترسل، وفي سكون حسي ومعنوي، أي سكون المكان مما يشوش الفكر، وسكون النفس من الخوف والرهبة والاضطراب والقلق ونحو ذلك.

فإذا حصل ذلك حصل التأثر، إذ الكلام الفصيح البليغ له تأثير قوي على نفس المستمع بل وصف رسول الله ﷺ هذا الأثر بالسحر، حيث قال: "إن من البيان لسحرا"[27].

وأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم في أنفسهم قولا بليغا، ولا شك أن كلام الله تعالى أبلغ كلام، ولذا فهو أشد أنواع الكلام تأثيرا في النفوس، لكن لا يحصل هذا إلا بقراءته قراءة مرتلة ومجودة مفهومة، ومتدبرة.

ولمَّا كان رسول الله ﷺ يقرأه كذلك، أسلم كثير ممن سمع قراءته متأثرا به.

ولذا كانت قريش تنهى الناس عن الاستماع إليه مثلما قالت للطفيل بن عمرو الدوسي: "إن قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، فلا تسمعن منه شيئا"[28].

وحكى القرآن هذا فقال: ﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ [29]، أي إيتوا باللغط ونحوه، وصيحوا في زمن قراءته، (لعلكم تغلبون)، فيسكت عن القراءة[30].

وهاهو جبير بن مطعم قبل إسلامه يسمع النبي ﷺ يقرأ بسورة الطور في صلاة المغرب فلما بلغ هذه الآية ﴿**أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ۞ أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون**﴾ قال: "كاد قلبي أن يطير"[31].

وبالفهم والتأثر الناتجين عن التدبر، تحصل الهداية التي هي الغرض الأول من إنزال القرآن.

الأساس السادس: تعاهده

التعاهد: التفقد والتردد إليه لتجديد العهد به، وذلك لعدم نسيانه، لأنه شديد التفلت كما أخبر بذلك ﷺ، وشدة تفلته ناتجة عن ما فيه من المتشابهات، وإنما جعل الله فيه هذه المتشابهات التي كان بها متفلتا ليتعاهد، إذ بتعاهده تحصل الهداية وزكاة النفس، وقوة الإيمان، وصفاء الطوية، وسداد الرأي، وسعة العلم، ولين القلوب.

قال ﷺ: "تعاهدوا هذا القرآن فو الذي نفسي بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها".

فإذا علمنا أنه ما جعل الله القرآن هكذا إلا ليتعاهد، وما تعوهد إلا لانت به القلوب، وزكت به النفوس، فمن أراد ابتكار طريقة لحفظه وعدم نسيانه غير التعاهد، فقد أبطل الحكمة من جعله متفلتا.

وقد كان النبي ﷺ وهو الذي تكفل له ربه بجمع القرآن في صدره وحفظه له حتى لا ينساه – لا يخلي ليله ونهاره من تلاوة القرآن[32].

وكان – كما قال القرطبي – يختمه في سبع، وهكذا قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنه: "واقرأ في كل سبع ليال مرة "[33].

وقد كان قال له أولا:" واقرأ القرآن في كل شهر"، فلما قال له إنه يطيق أكثر من ذلك، نقله إلى العشرين، وإلى الخمسة عشر، وإلى العشر، وانتهى به إلى السبع في قول الأكثر، وكان هذا فعل الأكثرين من السلف.

وعند الترمذي وغيره من حديث ابن عمرو رضي الله عنه مرفوعا: "لا يفقه[34] من قرأ القرآن في أقل من ثلاث"[35]، وهذا ترخيص في ما دون السبع، وترغيب عما دون الثلاث.

وقد فهم السلف من هذه الأحاديث بيان ما يكون وظيفة وحزبا يستمر عليه، فلذا لم يمتنعوا من ختم القرآن في أقل من ذلك في مرات في بعض الأحوال، وقد ثبت عن كثير منهم ختم القرآن في ركعة واحدة.

ولا شك أن أحوال حملة القرآن تختلف في التفرغ للتلاوة والاشتغال بغيرها.

وأحوال الشخص الواحد في نفسه تختلف كذلك، فيرتب حامل القرآن حزبه من الشهر إلى السبع على حسب حاله.

فإذا لم يكن من حملة القرآن، فلا يخل ليله ونهاره من تلاوة شيء مما معه، حسب استطاعته، ولا يكن من الغافلين[36].

الأساس السابع: حفظه

أنزل القرآن للهداية، وإصلاح الفرد والمجتمع بإصلاح النفوس والعقول والأخلاق، ويكفي في هذا قراءة القرآن أو سماعه – مع فهمه – بقلب حي، ورغبة صادقة، وليس من شرط الهداية الحفظ عن ظهر قلب، ولذا كان الاستماع إلى القرآن وتدبره للاتعاظ به ومعرفة أحكامه آكد من حفظه غيبا.

ومن هنا كان حفظه فرض كفاية على الأمة لا فرض عين.

وهو حسب سلم الأولويات بعد النظر فيه أو سماعه، وقراءته القراءة السليمة، مع الفهم والتدبر للاتعاظ به والعمل بمقتضاه، لأن مثل الذي يحفظ القرآن ويقرأه ولا يعمل به،كمثل المنافق الذي يقرأ القرآن، فهو كالريحانة ريحها طيب، وطعمها مر.

نقول هذا الكلام لا تقليلا من شأن الحفظ، وإنما تعديلا للموازين المقلوبة، وتصحيحا للمفاهيم المغلوطة، وإعادة ترتيب الأولويات، إذ بهذا جاءت النصوص، وهكذا رتبت الشرائع: فالشهادة قبل الصلاة والصلاة قبل الزكاة، والزكاة قبل الصوم. لقوله ﷺ: "بني الإسلام على خمس..." الحديث[37].

ثم مفهوم "حفظ القرآن" بمعناه اليوم، أي جمع القرآن في الصدور، لم يكن هو المفهوم السائد زمن نزول الوحي وما بعده، وإنما أكثر ما يقال "تعلم القرآن"، "تلاوته" ومعناها اتباعه، "قراءته" دون تحديد لقراءة النظر أو الغيب، وإذا جاءت كلمة يحفظ أو حافظ، فإنما المراد بها هي وغيرها، العلم والعمل.

قال **أبو بكر بن العربي**: " وكانوا – أي السلف الصالح – يحفظون القرآن بمعانيه دون حروفه، كما أنذر به الصادق، فكان مقدار الرجل في العلم يعرف بما عنده من القرآن، وأما اليوم فلا علم ولا قرآن "[38].

وقال **ابن حجر**: "المقصود من تلاوة القرآن: العمل به "[39].

فماذا كانت النتيجة عندما خلطنا الأولويات، فجعلنا الهم الأول والأخير حشو ذاكرة الطفل بالقرآن دون فهم لمعانيه، ولا وعي بمقاصده ومراميه ؟

وأقمنا لذلك مسابقات وطنية ودولية، توزع فيها جوائز مغرية لمن يحفظ ما لا يعي ويفهم، فضلا عن العمل.

وشيدنا المدارس، وحمي السباق بينها أيها تحفِّظ القرآن في أقصر مدة ممكنة (9 أشهر أو أقل أو أكثر) والبرمجة العصبية.

وتنافست المساجد على الحُفاظ ذوي الأصوات الحسنة للإمامة في صلاة التراويح ولو بالمصحف، فالمهم هو الصوت الحسن.

ألا يؤدي هذا كله بأبنائنا وبناتنا الذين هم ميدان تطبيق هذه النظرية، نظرية حفظ القرآن صرفا دون فهم أو عمل، إلى الاعتقاد أن الحفظ هو الأولوية الأولى، والقصد الأول لنزول القرآن، ويكفي الحفظ ليرفع صاحبه درجات، ويرضى عنه ربه، ويدخله الجنة، ويكرمه بين الناس ...؟

إن القرآن دواء، والدواء لا يؤخذ مرة واحدة، بل على جرعات، ولأيام وشهور حتى يؤتي مفعوله، فكذلك القرآن إذا كان القصد من تعليم أبنائنا القرآن علاجهم وشفاؤهم وبرؤهم وإصلاحهم، أما إذا كان تعليمنا القرآن هو المباهاة، والتفاخر، ومجاراة المجتمع، وموافقة العادة والتقليد، والعمل بالمستحب وترك الفرض، فإن هذا لا يزيدنا إلا بعدا من الله، لقوله تعالى: ﴿**كمثل الحمار يحمل أسفارا**﴾[40]، وقوله تعالى: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**[41]﴾.

فالاهتمام الزائد بالحفظ والإهمال الزائد للفهم والعمل، جعل مفهوم حفظ القرآن عند الأجيال وعند الأمة هو إتقان الحروف، ومن أخذ إجازة في رواية أو قراءة أو أكثر، فهو مقرئ وعلينا إكرامه وإجلاله والاحتفاء به، مما أذكى روح التنافس بين الشباب للوصول إلى هذه المرتبة مما أدى إلى شيوع الرياء والعجب والتطاول وحب الظهور والشهرة.

فالخلاصة ينبغي مراعاة سلم الأولويات، ولا تعطى القضية أكثر من حجمها، فالحفظ مطلوب لكنه مع الفهم والعمل خير على خير، وبدون فهم وعمل، صاحبه منافق بنص الحديث الصحيح (حديث الأترجة)، فينبغي أن يراعى في مسألة الحفظ: الفهم والتربية. والفهم بالتفسير الصحيح، والتربية بتقليل القسط المأخوذ، وطول الملازمة. بعد هذا ننتقل إلى طرق حفظه، وهي كثيرة، نرتبها على سلم الأولوية:

1- **الطريقة الشفوية**: أن يقرأ الأستاذ والطالب يعيد، وهي طريقة جبريل مع رسول الله ﷺ، وميزتها متانة الحفظ لعدم الاعتماد على غير الذهن والذاكرة.

2- **طريقة الإملاء**: وميزتها تعلم الكتابة والرسم، والمتانة من التكرار وانطباع اللوح في المخيلة، والاعتقاد بأن للَّوح سرا يساعد على الحفظ.

3- **النظر في المصحف أو غيره**: وهي أضعف الطرق لضعف الذهن إزاء حاسة النظر.

وينبغي التنبيه إلى أن هذه الطرق الثلاث لا تنفع إلا لمتقن القراءة نظرا، ولا يجوز للمعلم أن يأمر الطالب بحفظ الجزء المطلوب من ربع أو أقل أو أكثر وهو لا يتقن قراءته بالأحكام العامة وأحكام الرواية.

ولذا لا بد - قبل أن نطلب منه الحفظ - من الجلوس بين يدي المعلم وقراءته مرارا نظرا، والمعلم يصحح، فإذا اطمأن إلى أنه أتقنه، صرفه لحفظه غيبا، ومما يساعد على حفظه والتعامل معه، والتأثر به، ثم التأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه: الفهم. ولذا ينبغي على المعلم أن يشرح مفردات الجزء، وإعطاء المعنى العام قبل الحفظ.

وتحديد الجزء أو المقدار المحفوظ يرجع إلى قدرة كل طالب، ومراعاة ظروفه وواجباته، وشؤون حياته.

ولا يؤمر إلا بما يقدر على حفظه، ولا بأس – إذا لم يحفظ اليوم- أن يؤخر عرضه إلى اليوم التالي أو الذي يليه، إذ العبرة بجدية الطالب في الحفظ، والتزامه بالحضور، ومن الخطأ الجسيم أن نحدد للطلاب فترة زمنية يختم فيها القرآن، الأمر الذي يدفعهم إلى التنافس والتباري، وقصر همهم كله في الوصول إلى تلك الغاية وهي ختم المصحف في تلك المدة، مما يجعلهم يهملون كل شيء في حياتهم حتى صلاتهم، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وإعالة الزوجة والأولاد، والاطلاع على ثقافة العصر والدراسة في المدارس العامة.

ثم إن هذه الطريق مضادة للقصد من الحفظ، وهو التربية بالقرآن التي تتطلب طول الوقت، والاستمرار في ملازمة الشيخ والجماعة، فعلى المعلم أن لا ينقل الطالب من نجم إلى آخر إلا بعد أن يطمئن إلى أنه فهم النجم الأول وتقيد بما فيه، فعلى المعلم أن يحذر من أن يكون الحفظ على حساب الإتقان والفهم والعمل، وعلى المعلم أن يراعي في الحفظ اختلاف الطلاب من حيث القدرات والاستعداد والأحوال، من تفرغ كلي، وتفرغ جزئي، والسن، والذكورة، والأنوثة، وغير ذلك من الاختلاف.

الأساس الثامن: استعماله (العمل به)

على المعلم أن يحث بل ويمرن ويدرب الطلاب عمليا على العمل بالقرآن، إذ هذا هو الغاية من قراءته وتعلمه، وحفظه. والعمل بالقرآن على وجوه منها:

1- الصلاة به. 2- العلاج به. 3- الاستدلال به. 4- التخلق به. 5- تحكيمه.

الصلاة: 1- في الفرائض. 2- في النوافل. 3- وبخاصة قيام الليل.

العلاج به: 1- المعوذات. 2- الاسترقاء. 3- الأمراض النفسية.

الاستدلال به: 1- في الفتوى. 2- في التدريس. 3- في المناظرة والجدال.

لكن هذا لا يتم إلا بحفظه، الحفظ المتين، والتمرن على إنزال آياته على الواقع، ومجريات حياتنا الخاصة والعامة.

العمل به: أي حمل أنفسنا على الوقوف عند نصوصه، كما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم، فهذا عمر رضي الله عنه يدخل عليه عيينة بن حصن بن حذيفة فيقول: "هيه يا ابن الخطاب، فو الله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل" فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر بن قيس – وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا، وهو بن أخ عيينة -: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[42] وإن هذا من الجاهلين". والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله[43] (من كلام الحر، وقيل كلام ابن عباس).

ومعنى "ما جاوزها"، أي ما عمل بغير ما دلت عليه، بل عمل بمقتضاها، ومعنى "وقافا " أي يعمل بما فيه ولا يتجاوزه، وأشد شيء على النفس العدل والإنصاف في المعاملات .

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط**﴾، بالعدل ﴿**ولا يجرمنكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون**[44]﴾.

الأساس التاسع: تعظيمه ويكون ذلك بـ:

- إنفاق المال من أجله.

- القيام نحو الأجيال بكل ما من شأنه تعظيم القرآن لغرس ذلك في نفوسهم.

- تعظيم اللغة التي نزل بها (عدم رمي الجرائد على الأرض أو مسح الزجاج بها، أو وضعها تحت أقدام أصحاب السيارة المغسولة، أو لف الأمتعة بها، أو... أي فعل مهين) هذا بحق لغته، فما بالك به هو نفسه إذا كان مكتوبا على شيء.. ثم تعليم هذه اللغة و الالتزام بالتحدث بها.

- تعظيم المصحف المكتوب فيه ويكون بـ:

1- وضعه بالمكان الأعلى.

2- والمكان اللائق.

3- لم يجز الفقهاء استعمال الذهب إلا فيه تعظيما له.

4- عدم مس المصحف إلا من طاهر.

5- تجويده وتسجيله وتوزيعه، طبقا لقوانين القراء.

6- تعليمه بطرق وفي مدارس تليق به.

7- تعظيم معلمه وقارئه.

والطفل يغرس في نفسه عظمة القرآن، وقداسته، وجلالته .... إذا وجد من حوله معظما له، وفي مستوى عظمة القرآن، من معلم ومدرسة، وشهادة، وجوائز، وعمل، ودرجة، ومكانة.

فإذا وجد الطفل كل ما له علاقة بالقرآن معظما من المجتمع وبخاصة من الكبراء والأعيان، عظمه هو أيضا.

استخلف نافع بن عبد الحارث الخزاعي على مكة ابن أَبْزَى، فقال له عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال نافع: "يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله تعالى، عالم بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين "[45]. وكان ﷺ يُأمِّر من الناس أقرأهم لكتاب الله.

ودخول ابن عباس على جماعة المهاجرين دليل على تعظيم القرآن.

ثم هندام المعلم، وتصرفاته وسلوكه وأخلاقه، وسمْته، وشخصيته من أهم ما يؤثر في الطفل، فإذا كان دنيئا خسيسا لئيما، يقبل الضيم والذلة، ولا يهمه إلا الطمع، و...، فإن الطفل لا يحترمه ولا يحترم القرآن الذي يعلمه له.

8- طبعه طباعة فاخرة وبعناية العلماء.

9- نشر صور عملية عن أناس يعملون به ويتقيدون بأحكامه حذو القذة بالقذة ليطلع الناس على سلطان القرآن على النفوس.

10- كتابة البحوث والرسائل فيه.

11- تدريسه وتفسيره.

12- تقبيله ومسح الوجه به.

13- تغليفه والتفنن في كتابته و...

14- الإنصات والاستماع إليه عند سماعه.

15- عدم قطع الآية حتى تكمل.

16- عدم محوه أو تسجيل الغناء عليه.

17- وأهم تعظيم له هو الوقوف عند حدوده وأحكامه، وقوانينه، وأوامره، ونواهيه.

الأساس العاشر: الجهاد به

ويكون ذلك: 1- تدريسا. 2- جدالا. 3- دعوة. 4- تربية. 5- تقنينا.

قال تعالى: ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا**[46]﴾.

أي لما أكرمناك أيها النبي الكريم بعموم رسالتك، وختم النبوة بك، ولما أكرمناك أيها الحامل للقرآن الكريم، بحفظه وفهمه، ومن أوتي القرآن فقد أوتي النبوة، أو فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه، فقابل هذه النعمة بإخلاص الطاعة لربك، ولا تطع الكافرين أعداء الله وأعداءك في أي شيء يدعونك إليه من مقتضيات كفرهم كالرجوع إليهم، والسكوت عن بعض كفرهم، وابذل كل جهدك في دعوتهم للدين الحق، ومقاومة ما هم عليه من الباطل بالقرآن العظيم، وجاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا، بتحمل كل ما يأتيك من ناحيتهم من بلاء وإذاية، والصبر عليه والثبات على الدعوة، والمقاومة.

وكما لا تجوز طاعة الكافرين في شيء مما يمليه عليهم كفرهم، كذلك لا تجوز طاعة العصاة في شيء مما تمليه عليهم معصيتهم، لأن الجميع فيه مخالفة لدين الله.

وكما يجاهَد أهل الكفر بالقرآن العظيم الجهاد الكبير، كذلك يجاهد به أهل المعصية، لأنه كتاب الهداية لكل ضال، والدعوة لكل مرشد. وفي ذكر الكافرين تنبيه على العصاة من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى، لاشتراكهم في العلة وهي المخالفة

ما كان النبي ﷺ وآله ليطيع الكافرين، وإنما جاء هذا النهي تهييجا له على تمام مخالفتهم ومعاكستهم في جميع مناحي ومظاهر كفرهم. والخطاب وإن كان له، فالحكم شامل لأمته.

فلا يجوز للمسلم – وبخاصة حامل القرآن – أن يطيع كافرا أو عاصيا في أي شيء من نواحي الكفر ونواحي المعصية. وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه، فكذلك هو فرض على أمته، هكذا على الإجمال. وعند التفصيل، تجده فرضا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين، وأولى الناس بتحمل هذا الفرض، هم حاملوا القرآن العظيم. هذه الآية نص صريح في أن الجهاد إلى الله، وإحقاق الحق من الدين، وإبطال الباطل من شبه المشبِّهين، وضلالات الضالين، وإنكار الجاحدين، هو بالقرآن العظيم.

- ففيه بيان العقائد وأدلتها، ورد الشبه عنها.

- وفيه بيان الأخلاق، محاسنها ومساوئها، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى، والتخلي عن الثانية ومعالجتها.

- وفيه أصول الأحكام وعللها.

وهكذا فيه كل ما يحتاج إليه المجاهد به في دين الله. فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها، أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وإرشادهم بالقرآن العظيم. ولا شك أن هذه المنزلة هي أعلى منازل حامل القرآن لقيام صاحبها بمهمة الأنبياء والرسل، وقد سماها الله تعالى جهادا كبيرا، وفي ذلك منقبة كبرى للقائمين بها. لكن هل المدارس القرآنية والزوايا، والكتاتيب والكليات والجامعات الإسلامية، هي حقا تسير في هذا الاتجاه؟

أي تخريج هذا الطراز من المجاهدين بالقرآن، ونحن نعلم أن الجهاد بالقرآن يتطلب ثقافة غزيرة، دينية ودنيوية، وإطلاع واسع على حياة المجتمعات المعاصرة، وتقوى وخلقا، وإخلاصا وثباتا، وصبرا، ويقينا. ومع هذا فإن أملنا كبير، ورجاءنا واسع في أن ما نراه اليوم من تباشير، وطلائع، وبوادر لميلاد جديد لهذه الأمة سيصبح واقعا كما حصل بالأمس.

فاللهم شرفنا بالانتساب إلى صفوف المجاهدين بهذا القرآن، وقافلة الداعين إليه العاملين به.

الهوامش:

[1]- سورة الإسراء الآية 82.
[2] - الفرقان الآية 32.
[3]- تفسير الجلالين بهامش القرآن الكريم، للإمامين الجليلين: جلال الدين المحلي، جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص474.
[4] - سورة الإسراء الآية 106.
[5] - الجلالين، المصدر السابق، ص 379.
[6]- سورة الفرقان الآية 20
[7] - الفرقان الآية 07
[8] - قطب (سيد): في ظلال القرآن، 2562/5-2563، دار الشروق، ط2004/34.
[9] - أخرجه عنه الإمام الطبري في تفسيره المسمى بجامع البيان، تحقيق: محمود محمد شاكر وراجعه وخرج أحاديثه أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر، ج80/1، بدون تاريخ.وقال المحققان: هذا إسناد صحيح وهو موقوف على ابن مسعود ولكنه مرفوع معنى.
[10] - نفس المصدر السابق ونفس الصفحة، وقال المحققان: هذا إسناد صحيح متصل لأن إبهام الصحابي لا يضر.
[11] - نفس المصدر السابق.
[12] - (ابن الجزري)، أبي الخير محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، م2، دار الفكر، ص197.
[13]- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استانبول، مادة (م ر أ).
[14]- سورة ص الآية 29.
[15]- سورة الزمر الآية 27-28.
[16] - سورة إبراهيم الآية 4.
[17]- سورة البقرة 78. (الكلبي) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط4، 1983، ص51.
[18]- سورة محمد الآية 24.
[19]- تفسير ابن باديس المسمى بمجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع: محمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين، دار الكتاب الجزائري، مطبعة الكيلاني الصغير، القاهرة، مصر، ص291.
[20]- سورة الفرقان الآية 73.
[21]- الطبري: مصدر سابق، 81/1.
[22] - وأخرجه البخاري بنحوه. (66 فضائل القرآن-8- باب القراء من أصحاب رسول الله ﷺ حديث4). (صحيح البخاري-ص1089) دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض،ط1، 1997، باهتمام عبد المالك مجاهد.
[23]- من بالاغات مالك في الموطأ (15-كتاب القرآن-4-باب ما جاء في القرآن-ج11) انظر: الموطأ برتيب فؤاد عبد الباقي- مطبعة دار إحياة الكتب العربية-ج205/1.
[24]- الاستذكار 502/2-علق عليه ووضع حواشيه: سالم محمد عطا- محمد علي معوض- منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة- دار الكتب العلمية- بيروت-لبنان-ط2002/2.
[25]- موطأ مالك- 9- كتاب قصر الصلاة في السفر – 24-باب جامع الصلاة – حديث 88- الجزء الأول- ص173.

[26]- (الطبري): مصدر سابق، (90/1).
[27] - البخاري: مصدر سابق، ص1238، (ك76-الطب-باب51-إن من البيان لسحرا).
[28]- ابن هشام: السيرة، (382/1)، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.لبنان.
[29]- سورة فصلت الآية 26.
[30]- (الجلالين): مصدر سابق، ص390.
[31]- (البخاري): مصدر سابق، (التفسير: سورة الطور) (ص 1041).
[32]- ونفهم من هذا أن التعاهد ليس المراد به عدم النسيان فقط، بل الهداية به.
[33]- (البخاري): مصدر سابق، (فضائل القرآن- في كم يقرأ القرآن) (ص1098).
[34]- وهذا يدل على أن القصد من القراءة الفقه.
[35]- أبي بكر بن العربي: عارضة الأحوذي شرح الترمذي، (49/11)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، (ك/ القراءات – باب 13) ج 2949 (49/11).
[36]- انظر: مجالس التذكير أو تفسير ابن باديس، ص45.
عارضة الأحوذي، مصدر سابق، (6/11)، (ك/فضائل القرآن-باب ما جاء في سورة البقرة).
[37]- صحيح مسلم، ترتيب: فؤاد عبد الباقي، نشر وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية،1980، (45/1)، (1 ك/الإيمان-5-باب بيان أركان الإسلام).
[38]- عارضة الأحوذي، مصدر سابق، (6/11)، (ك/فضائل القرآن-باب ما جاء في سورة البقرة).
[39]- فتح الباري- دار الكتب العلمية-بيورت- لبنان-منشورات محمد علي بيضون-ط3-2000- (83/11) (فضئل القرآن-فضل القرآن على سائر الكلام).
[40]- سورة الجمعة الآية 5.
[41]- سورة البقرة الآية 78.
[42]- سورة الأعراف الآية 199.
[43]- صحيح البخاري، مصدر سابق، ص964، (ك / التفسير-سورة الأعراف).
[44]- سورة المائدة الآية 8.
[45]- صحيح مسلم، مصدر سابق، (559/1)، (6-ك/ صلاة المسافرين، 47، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلم) (حديث 269).
[46]- سورة الفرقان الآية 52.